أوفياء الوطن

٢٠١٢/٧/١٨

شريف الشوباشى

لا يسعنى أن أستهل هذا المقال دون أن أعرب عن حزنى العميق لاختفاء ضوء ساطع لمع فى سماء الصحافة المصرية خلال الأربعين عاما الماضية منذ أن بدأ يكتب فى صحيفة الأخبار بتوقيع: «بون.. من سلامة أحمد سلامة» عندما كانت مدينة بون لا تزال عاصمة ألمانيا الاتحادية قبل التوحيد.

عرفته خلال إحدى زياراته للقاهرة وهو ما زال مراسلا للأخبار فى ألمانيا وأدركت على الفور أنه ينتمى إلى فصيلة نادرة من الرجال المحترمين الذين يضحون بكل شيء من أجل القيم والمبادىء بالإضافة إلى تمتعه بكفاءة صحفية رفيعة وأسلوب رصين فى التعبير عن أفكاره. وقد لعب سلامة الدور الأساسى فى إقناع الأستاذ ابراهيم نافع بأن أتولى إدارة مكتب الأهرام فى باريس فى منتصف الثمانينيات من القرن الماضى وكان هو الذى تولى الاتصال بى عدة مرات فى فرنسا لإنهاء هذا الموضوع.

وتشاء الأقدار أنه قبل أن أعلم بخبر وفاة فقيد الصحافة الكبير كنت قد انتويت أن أخصص هذا المقال لرجل تجمعه بسلامة العديد من الصفات والخصال الشخصية منها التجرد الكامل والالتزام بالمواقف المبدئية والبُعد عن مطامع الحياة. وفى زمن يتهافت فيه الناس على المال والشهرة ويتقاتلون على الماديات والمناصب تظهر وجوه تبعث الأمل فى النفس والاطمئنان على مستقبل مصر. ومن تلك الوجوه التى كثيرا ما تلوح أمامى رجل ضحى بكل شيء من أجل مبادئه وعاش حياة بسيطة مع أنه كان بإمكانه أن ينعم بما حظى به غيره وهو المناضل والشاعر والناقد حسن فتح الباب - أطال الله فى عمره.

فى الخمسينيات والستينيات كانت كلمة مناضل لها رنين إيجابى ساحر فى النفوس وهى فى زمننا هذا قد تثير سخرية البعض والتباس لدى الكثيرين. وفى منتصف القرن العشرين كان عصر الكفاح من أجل التحرر قد بلغ أوجه فى العالم كله خاصة فى آسيا وافريقيا التى كانت تموج بحركات الاستقلال. وكان رمز النضال والحرية فى العالم هو تشى جيفارا الذى عينه كاسترو وزيرا فى كوبا بعد نجاح الثورة فترك المنصب بعد شهور قليلة وغادر كوبا قائلا: لم أخلق لأكون مسئولا يأمر وينهي، بل خلقت لأكون مناضلا يفنى حياته من أجل الآخرين. وقتل جيفارا غدرا ودون محاكمة فى بوليفيا وهو يناضل من أجل الإطاحة بالحكم الدكتاتورى الذى كان يجثم عليها. لكن تضحياته لم تذهب هباء حيث تحررت كل شعوب أمريكا اللاتينية وعمت الحرية والديمقراطية بالقارة بعد عقود قليلة من مصرعه.

فى هذا المناخ المضطرب الذى كان يسود العالم الثالث كان الدكتور حسن فتح الباب من أشد أنصار الثورة ودعاة الكفاح وكان مؤمنا إيمانا راسخا بأن الاشتراكية هى سبيل الخلاص لمصر وللشعوب العربية بل انها طوق النجاة بالنسبة للعالم أجمع وكان يشعر أنه صاحب رسالة فى الحياة. والمفارقة العجيبة أن حسن فتح الباب كان فى تلك الفترة ضابط شرطة بالداخلية المصرية يلقى القبض على الناس ويمثل قبضة الدولة الحديدية. لكن قلبه كان يدق بين جوانحه بعكس ذلك وكان مقتنعا بأنه خلق لغير هذه المهمة وسعى لترك الخدمة من أجل التفرغ للكتابة.

كتب أول ديوان شعرى فى الخمسينيات وأهدى نسخة لوزير الداخلية آنذاك الراحل زكريا محيى الدين وهو لا يتصور أن يهتم الرجل بقراءة الشعر. لكنه فوجيء بتحديد موعد له مع الوزير وهو مازال ضابطا برتبة صغيرة واستقبله زكريا محيى الدين وهنأه على كتابة الشعر وقرر نقله إلى القاهرة بعد أن ظل منفيا فى الأرياف لسنوات طويلة.

وحياة د. حسن فتح الباب هى تلخيص لتاريخ مصر الحديث بدءا من الكفاح ضد الاستعمار البريطانى والإيمان بالثورة والاستقلال والتحرر ثم الشعور بمرارة الهزيمة ورفض الاستسلام. فعندما وقع الرئيس الراحل السادات اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨ كان حسن فتح الباب قد ترك الخدمة الشرطية واستطاع أن يجهر بمعارضته ويكشف عن آرائه وتوجهاته فغادر مصر كما فعل العديد من كبار المثقفين والمبدعين فى تلك الحقبة وعاش فى الجزائر وانضم إلى الجبهة المعادية لسياسة السادات إزاء إسرائيل وأمريكا وهى الجبهة التى كان يرأسها الفريق سعد الدين الشاذلي. وعاش حسن فتح الباب فى المنفى الاختيارى دون أن يتاجر بمعارضته للسادات أو يستفيد من مواقفه.

وبالتأكيد فإن الرجل لم يحظ بالمكانة التى يستحقها فى الحياة الثقافية المصرية لأنه رفض دائما أن يطرق الأبواب ويجلس ساعات طوال فى حجرات انتظار المسئولين كما فعل كثيرون غيره.

لكننى عندما التقيت به أخيرا وجدت ابتسامة الرضا على وجهه وشعرت أنه فى حالة سعادة داخلية بسبب ثورة ٢٥ يناير وهو متفائل بأنها سوف تحقق أهدافها لا محالة ومهما طالت الأيام ومقتنع بأن مصر وضعت قدمها على الطريق الصحيح. فأمثال حسن فتح الباب لا يطربون لنجاحهم الشخصى لأنهم يعيشون من أجل الآخرين ونذروا حياتهم من أجل مجتمعهم وبلادهم. أكثر الله من أمثاله، فى عصر يتسابق فيه الناس من أجل الظهور على شاشات التليفزيون ويتنازعون من أجل العظام والفتات.